

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

إعداد

الدكتور الحافظ عبد الرحيم محمد حنيف *

السيدة صبيحة عبد القدوس *

مفهوم التفسير الإشاري:

هو تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة خفية تظهر لأرباب السلوك والتصوف ويمكن الجمع بينها وبين الظاهر المراد أيضا. ويقال له التفسير الفيضي وتفسير الصوفية.

فإذا دار المفسرون في حدود اللفظ القرآني، واستنبط منه الأسرار والحقائق مالا ينكشف لسواهم ولا يدركه غيرهم. وذلك لتجدد واردات الحق لهم ودوام تنزل فيوضات على قلوبهم، لأنهم أهله ومحبه.

وفيض الله المتجدد في كلامه لهم لما يزيد في كمال إعجاز القرآن ويؤكد أن إعجازه أسمى من أن يكون في فصاحة لفظه وقوة أثره وبلاغة أسلوبه وإنما إعجازه فوق ذلك في أسرارهِ ومعانيهِ ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بتفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه. ومن ثم كان ما ينكشف لهم في كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم وحدهم لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب، والإشارة

* - أستاذ مشارك بقسم اللغة العربية وآدابها جامعة بهاء الدين زكريا ملتان.

* - ماجستير الفلسفة في اللغة العربية وآدابها.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

بعد ذلك تلويح للمراد لا إفصاح عند لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد. لأن تعدد ما يشيرون إليه، وما يشيرون إليه يكون عن مشاهدة، وما يشاهدونه ليس بمحدود، إذ هو من عالم الغيوب، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد ولا قابليات المعقول تطبيق ذلك، ومن ثم سميت مذاقاتهم في القرآن إشارات ولم تسع تفسيراً^١. فاهل التحقيق أو الصوفية بعد إقرار التفسير الظاهر وأنه الأصل الذي نزل فيه القرآن، ولكن لهم في كلام الله مع الأخذ بهذا التفسير الظاهري مذاقات يمكنهم إغفالها لأنها بمثابة واردات أو هواتف من الحق لهم.

من هنا مذاقات الصوفية وأهل الإشارات في القرآن الكريم وفهم مراده. وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هي المرادة، وإنما يأخذونها إشارات من الله لهم بعد إقرار ما قاله أهل الظاهر من تفسير باعتبارهم أهل التشريع، على أن تلك الإشارات أمر مشروع أقره الحديث:

”إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً.“^٢

ولم يكن هذا التفسير الإشاري بأمر جديد في إبراز معاني القرآن الكريم ومفاهيمه، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله ﷺ كما أشار القرآن الكريم ونبه عليه محمد ﷺ وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى أجمعين.

الاستشهاد بالقرآن الكريم:

قال الله تعالى:

﴿فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾^٣

^١ - القشيري، عبد الكريم بن هو ابن أبو القاسم: لطائف الإشارات تحقيق د. إبراهيم

بسيوني: يار الكتاب العربي بالقاهرة. مقدمة ص ٦.

^٢ - الغزالي، محمد بن محمد م ٥٠٥هـ: إحياء علوم الدين، دار الندوة الجديدة بيروت. كتاب قواعد العقائد ١١٩/١.

^٣ - سورة النساء آية ٧٨.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾^١

وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَقْفَالًا ﴾^٢

هذه الآيات الشريفة كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وباطن وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً، ويعضهم على التدبر في فهم ظاهره ولاشك، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم.^٣

الاستشهاد بالحديث النبوي:

وأما الأحاديث التي نبه فيها النبي ﷺ إلى ذلك ما قال الفريابي من رواية الحسن أنه قال رسول الله: "لِكُلِّ آيَةٍ ظَهَرٌ وَبَطْنٌ وَلِكُلِّ حَرْفٍ حَدٌّ وَلِكُلِّ حَدٍّ مَطْلَعٌ"، وما أخرجه الديلمي من حديث عبد الرحمن بن عوف مرفوعاً: "الْقُرْآنُ تَحْتَ الْعَرْشِ لَهُ ظَهَرٌ وَبَطْنٌ وَبَطْنٌ يَحَاجُّ الْعِبَادَ".^٤

يصرح هذان الحديثان بأن القرآن له ظَهَرٌ وَبَطْنٌ ولكن في معنى الظهر والباطن أوجه:

الأول: أن ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها.^٥

^١ - سورة النساء آية ٨٢.

^٢ - سورة محمد آية ٢٤.

^٣ - الشاطبي، أبو إسحاق: الموافقات، المكتبة التجارية ٣/٣٨٢.

^٤ - الغزالي إحياء العلوم ١/١١٩، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن الإتيان في علوم القرآن، منشورات رضي، بيدر ٤/٢٢٦، الذهبي، الدكتور محمد حسين: التفسير والمفسرون دار إحياء التراث العربي بيروت ٢/٣٥٣.

^٥ - راجع إلى السابق.

^٦ - السيوطي، الإتيان ٤/٢٢٦.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

والثاني: ضال أبو عبيد إن القصص التي قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به، ظاهره بهلاك الأولين، إنما هو حديث حدث به عن قوم، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا فعلهم، فيحل بهم مثل ما حل بهم.^١

والثالث: حكى ابن النقيب: إن ظهرها معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي اطلع الله عليها أرباب الحقائق، ومعنى قوله: "ولكل حرف حد" أي منتهى، فيما أراد الله من معناه، وقيل: لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب، ومعنى قوله "ولكل حد مطلع" لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل إلى معرفته، ويوقف على المراد به.^٢

والرابع: قال بعضهم: الظاهر التلاوة والباطن الفهم، والحد أحكام الحلال والحرام والمطلع الإشراف على الوعد والوعيد.^٣

والحديث الآخر في جواز التفسير الإشاري ما قال ابن مسعود:

"من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن"

قيل: هذا الذي لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر.^٤

أما الروايات الدالة على أن الصحابة فسروا القرآن تفسيراً إشارياً. فما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال "كان يدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر إنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فادخله معهم، فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليريهم قال:

١ - المصدر السابق.

٢ - المصدر السابق.

٣ - المصدر السابق.

٤ - المصدر السابق، والغزالي، إحياء العلوم ١/١١١ باب فهم القرآن.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾^١، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفر إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا، فقال لي أذاك تقول يا ابن عباس؟ فقلت لا قال فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له إذا جاء نصر الله والفتح، وذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول^٢.

فحبر الأمة سيدنا ابن عباس رضى الله عنهما فهم المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريق الإشارة.

والمثال الآخر هو إذا نزلت قوله تعالى:

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^٣.

فرح الصحابة وبكى عمر وقال: ما بعد الكمال إلا النقص، مستشعرا عن النبي ﷺ.

هذه الأدلة كلها تفيد أن القرآن الكريم له ظهر يفهمه كل من يعرف اللغة العربية، وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصيرة.

آراء العلماء في التفسير الإشاري:

ينقسم العلماء إلى طائفتين - طائفة يجوز التفسير الإشاري والآخر ينكر هذا.

قال النسفي في عقائده:

- ١ - سورة النصر آية ١.
- ٢ - البخاري، محمد بن إسماعيل م ٢٥٦ هـ صحيح البخاري دارا إحياء التراث العربي بيروت تفسير سورة النصر ٢٢٠/٢.
- ٣ - سورة المائدة آية ٥.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

"النصوص على ظاهرها، والعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إحاد.
قال التفتازاني في شرحه: سميت الملاحدة باطنية لادّعائهم أن النصوص ليست
على ظاهرها، بل لها معان باطنية لا يعرفها إلا المعلم وقصدهم بذلك نفي الشرعية
بالكلية.

قال: وأما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها و مع
ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها
وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان^١.

وقال ابن الصلاح في فتاويه: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر
أنه قال:

"صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق في التفسير، فإن كان قد اعتقد أن
ذلك تفسير فقد كفر"^٢.

قال الزركشي:

"كلام الصوفية في تفسير القرآن قيل إنه ليس بتفسير وإنما هو معان
ومواجيد يجدونها عند التلاوة"^٣.

وقال بعض العلماء: لكل آية مستون فهم، فهذا يدل على أن في فهم معاني
القرآن مجالا رحبا، ومتسعا بالفا، وأن المنقول من ظاهر التفسير وليس ينتفي
الإدراك فيه بالنقل، والسماع لا بدمنه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط،
ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط، ولا يجوز التهاون في حفظ التفسير الظاهر بل

^١ - السيوطي، الإتقان: ٢٢٤/٤، والزرقاني، الشيخ عبد العظيم مناهل العرفان دار إحياء
التراث العربي بيروت ١/٥٤٧.

^٢ - الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٤٧.

^٣ - الزركشي، محمد بن عبد الله: البرهان في علوم القرآن دار إحياء التراث العربي
بيروت: ١٧٠/٢.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

لا بد منه أولاً، إذ لا يطمع في الوصول إلى الباطن قبل أحكام الظاهر، ومن ادعى فهم أسرار القرآن، ولم يحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب.^١

نقل السيوطي عن ابن عطاء الله الاسكندري: أنه قال:

”أعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعاني العربية ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه“.

وقد جاء في الحديث: ”ولكل آية ظهر وبطن“، فلا يصدّك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة: هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله، فليس ذاك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهك لم يقولوا ذلك، بل يقرعون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم.^٢

الحاصل أن هناك فرق بين تفسير الصوفية المسمى بالتفسير الإشاري وبين تفسير الباطنية الملاحظة. فالصوفية لا يمنعون إرادة الظاهر وتفسيرهم جائز و مقبول.

أما الباطنية فإنهم يقولون:

”إن الظاهر غير المراد أصلاً وإنما المراد الباطن وقصدهم تفي الشرعية: فتفسيرهم ليس بمقبول ولا شك أن ذلك في ميزان الشريعة الإسلامية ضلال وإلحاد.

^١ - السيوطي، الإتقان ٤/٢٢٦.

^٢ - المصدر السابق ٤/٢٢٧.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

شروط قبول التفسير الإشاري:

من أجاز التفسير الإشاري، يجعلون لقبوله شروطا وهي:

١- ألا يتنافى ما يظهر من معنى النظم الكريم.

٢- ألا يدعي أنه المراد وحده دون الظاهر.

٣- ألا يكون له معارض شرعي أو عقلي.

٤- أن يكون له شاهي شرعي يؤيده.

هنا تجدر بالإشارة إلى أن هذه شروط لقبوله بمعنى عدم رفضه، وليست شروطا لوجوب اتباعه والأخذ به. ذلك لأنه لا يتنافى وظاهر القرآن، ثم إن له شاهد يعضده من الشرع وكل ما كان كذلك لا يرفض. وإنما لم يجب الأخذ به لأن النظم الكريم لم يوضع للدلالة عليه، بل هو من قبيل الإلهامات التي تلوح لأصحابها غير منضبطة بلغة ولا مقيدة بقوانين.^١

أهم كتب التفسير الإشاري:

قال الزرقاني: أهم كتب التفسير الإشاري أربعة.

١- تفسير النيسابوري. ٢- تفسير التستري.

٣- تفسير محي الدين ابن عربي. ٤- تفسير الألوسي.^٢

تعريف تفسير النيسابوري:

يمتاز هذا التفسير بسهولة عبارته، وتحقيق ما يحتاج إلى تحقيق، مع قصد وخلو من الحشو وقد عني بأمري يلتزمهما: الكلام على القراءات والأوقف

^١ - الزرقاني، مناهل العرفان ٥٤٩/١.

^٢ - المصدر السابق ٥٥٠/١.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

في أول كل مرحلة من مراحل التفسير. والكلام على التأويل الإشاري في آخر كل مرحلة من تلك المراحل. وهو مطبوع طبعة شهيرة على هامش تفسير ابن جرير. فهو يسوق المعنى الإشاري تحت العنوان: قال أهل الإشارة أو يقول (التأويل) ومثال ذلك أنه قال بعد قوله تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾^١ ما نصه: (التأويل) مساجد الله التي يذكر فيها اسمه عند أهل النظر، النفس، والقلب والروح، والسر، والخفي وهو سر السر. وذكر كل مسجد منها مناسب لذلك المسجد. فذكر مسجد النفس الطاعات والعبادات، ومنع الذكر فيه بترك الحسنات وملازمة السيئات. وذكر مسجد القلب التوحيد والمعرفة ومنع الذكر فيه بالتمسك بالمشبهات، والتعلق بالشهوات، فإن القلوب المعلقة بالشهوات عقولها عنى محجوبة. وذكر مسجد الروح بالشوق والمحبة ومنع الذكر فيه بالحفظ والمسكنات. وذكر مسجد سر المراقبة والشهود، ومنع الذكر فيه بالركون إلى الكرامات. وذكر مسجد الخفي وهو سبر السر، بذل الوجود، وترك الموجود، ومنع الذكر فيه بالالتفات إلى المشاهدات والمكاشفات^٢ الخ^٣.

تعريف تفسير التستري:

هو أبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة ٣٨٣هـ. وتفسيره هذا لم يستوعب كل الآيات، وإن استوعب السور. وقد سلك فيه مسلك الصوفية مع موافقته لأهل الظاهر. ونموذجاً منه إذ يقول في تفسير البسملة ما نصه:

" (البا) بهاء الله عز وجل (والسين) سناء الله عز وجل، (والميم) مجد الله عز وجل (والله) هو الاسم الأعظم الذي حوى الأسماء كلها وبين الألف واللام منه حرف مكني غيب إلى غيب، وسر من سر إلى سر، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة،

^١ - سورة البقرة آية ١١٤.

^٢ - الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٣٦-٥٥٢.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

لا ينال فهمه إلا الظاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان (والرحمن) اسم فيه خاصة من الحرف المسكن بين الألف واللام (والرحيم) هو العاطف على عبادة بالرزق في الفرع، والابتداء في الأصل رحمة لسابق علمه القديم^١.

قال أبو بكر: أي بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة لأتفه رحيم. وقال علي ابن أبي طالب رضى الله عنه: الرحمن والرحيم اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر، فنفى الله بهما القنوط عن المؤمنين من عباده^١.

تعريف تفسير ابن عربي:

هو محي الدين ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨هـ. وتفسيره "تفسير القرآن الكريم" طبع في مجلدين ونموذج من تفسير للتفسير الإشاري أنه قال في تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾

أنصه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هي النفس الحيوانية، وذبحها قمع هواها الذي هو جياتها ومنبعها من الأفعال الخاصة بها بشفرة سكين الرياضة^٢.

تعريف تفسير الآلوسي:

روح المعاني للعلامة المحقق شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي المتوفى سنة ١٢٧٠هـ. وهذا التفسير من أجل التفاسير وأوسعها وأجمعها. نظم فيه روايات السلف بجانب آراء الخلف المقبولة، وألف فيه بين ما يفهم بطريق العبارة وما يفهم بطريق الإشارة.

^١ - المصدر السابق ١/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

^٢ - المصدر السابق ١/ ٥٥٦.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

يسوق المعنى الإشاري بعنوان (من باب الإشارة) كما قال بعد تفسير ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى﴾ الخ: وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى الْقَلْبَ، لَنْ نُؤْمِنَ الْإِيمَانَ الْحَقِيقِي حَتَّى نَصِلَ إِلَى مَقَامِ الْمَشَاهِدَةِ وَالْعَيَانِ فَأَخَذْتُمْ صَاعِقَةَ الْمَوْتِ الَّذِي هُوَ الْفَنَاءُ فِي التَّجَلِّيِ الذَّاتِيِّ وَأَنْتُمْ تَرَأَوْنَ أَوْ تَشَاهِدُونَ^١.

هذه الكتب الأربعة التي عدّها الزرقاني من أهم كتب التفسير الإشاري. ولكن الدكتور محمد حسين الذهبي يذكر في هذا النوع من التفسير التي وجه أصحابها فيها كل عنايتهم نحو التفسير الإشاري ومنها:

حقائق التفسير:

لأبي عبد الرحمن السلمي المتوفى ٤١٢هـ كان شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان له اليد الطولي في التصوف والسير على سنن السلف.

وعرائس البيان في حقائق القرآن:

لأبي محمد الشيرازي المتوفى ٦٦٦هـ سار فيه على منهج التفسير الإشاري ولد يتعرض للتفسير الظاهر وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولاً.

والتأويلات النجمية:

ألفه نجم الدين داية المتوفى ٦٥٤هـ ومات قبل أن يتمه فأكمّله علاء الدين السمناني المتوفى ٧٣٦هـ بعده.

وكشف الأسرار وعدة الأبرار:

للشيخ رشيد الدين أبو الفضل المبيدي وهو من علماء القرن السادس الهجري. ويكاد يكون هذا التفسير الجامع الوحيد للقرآن الكريم باللغة الفارسية

^١ - الزرقاني، مناهل العرفان ١/٥٥٢.

التفسير الإشاري: نشأته وتطوره

الذي ألفه عالم من علماء أهل السنة والجماعة. وهذا التفسير من أشهر التفاسير المتداولة الأخرى التي كتبت بالفارسية لدى أهل السنة.

رأي الزرقاني:

بعد الكلام على هنا النوع من التفسير يأتي الشيخ محمد الزرقاني بنصيحة خالصة وهي:

بيد أن هذا التفسير جاء كله على هذا النمط دون أن يتعرض لبيان المعنى الوضعية للنصوص القرآنية وهنا الخطر كل الخطر. وهو أن يفهم أن هذه المعاني الإشارية هي مراد الخالق لهداية الخلق وإرشادهم.

فدخل في روعهم أن تعاليم الإسلام كله ماهي إلا سوانح و واردات على هذا النحو من التأويلات والتوجيهات وأن المطلوب منهم هو الشطح ولم ينقيد التكليف الشريعة ولم يحترموا القوانين اللغة العربية وأنهم يتخيلون أو يخيل إليهم أن أهل الحقيقة الذين أدركوا الغاية اتصلوا بالله اتصالا أسقط عنهم التكليف.

فينصح للمسلمين أن ينفضوا أيديهم من أمثال تلك التكاسير لأنها كلها أذواق ومواجيد خارجة عن حدود الضبط والتقيد، وكثير ما يختلط الخيال بالحقيقة، والحق بالباطل فالأحرى بالفتن العاقل أن يتقى هذه المزالق لأنه قال. (دَعْ مَا يُرِيدُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيدُكَ).^١

نسأل الله تعالى أن يخرجنا من ظلمات الأوهام وأن يحققنا بحقائق الدين وتعاليم الإسلام. (أمين)..

^١ - المصدر السابق ٥٥٨/١.